الفصل الأول

أحوال العرب قبل الإسلام

مما لا جدال فيه أن للعرب، قبل الإسلام، وصلوا إلى حالة من الاستقرار والتبلور في حياتهم :الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والفكرية، والدينية.

ففيما يتصل بالحالة الاجتماعية، كان المجتمع العربي يقوم أساسا على الأسرة، التي تقوم على أساس الزواج. وكان الزواج متعدد الأنواع، ولكن هذه الأنواع جميعاً لم يكن لها نصيب من الذيوع، ماعدا النوع، الذي يقوم على التعاقد، المشروط فيه القبول والإيجاب والصداق والإشهاد، وهذا النوع هو الذي أقره الإسلام، ولم يتقيد العربي بأي قيد في الزواج: فقد كانت له حرية التزوج من أكثر من واحدة، بلا حد عددي. وكان يتمتع بحق الانفصال عن زوجته، كما تتمتع الزوجة بحق الانفصال عن زوجها، إذا اشترطت ذلك قبل الزواج، وهذا هو المعروف بالطلاق. وكان للرجل هو صاحب التصرف المطلق في شئون أسرته، يزودها بحاجاتها المعيشية: من مسكن، ومأكل، وملبس. وهو الذي ينشيء أولاده التنشئة التي يراها، فهم عزوته وعصبيته، ورباطهم بالوالد هو رباط الدم والطاعة.

وغالبا ما كانت الأسرة العربية تشتمل على الرقيق والجواري،

وكان لصاحب الرقيق الحق في التصرف فيه بما شاء، دون أن يسأل عن ذلك. وكان الرقيق يباع ويشترى، أو يؤول إلى العرب، عن طريق الثارات والحروب، من الأسرى. ولا يلزم مطلقاً أن يكون الرقيق من جنس واحد، بل إن بعض الرقيق كانوا عرباً، وقعوا في الأسر، ولم يفك الفداء أسرهم.

والأسرة، عند العرب، كغيرهم، قابلة للزيادة في أفرادها، فإذا زادت إلى حد معين، أصبحت بطناً، والبطون أفخاذا، والأفخاذ شعوباً، والشعوب قبائل. وكانت القبيلة هي الوحدة الكبرى للمجتمع العربي، وتتمثل فيها قوتها واتحادها وعصبيتها، برياسة شيخها، المنتخب من بين رؤساء الأسر والبطون والأفخاذ والشعوب.

وكانت المرأة تشغل عند العرب مركزاً ممتازا: فهي التي تعنى بالرجل في بيته، فتهيىء له طعامه، وتغزل أوبار أنعامه، وأصواف غنمه، وتحوها بالنسيج إلى ثياب وخيام وفرش وأغطية. وتقوم على الأبناء فتربيهم أطفالا. وتشير على الرجل بالرأي في مهام الأمور. ومع ذلك، فقد احتفظ العربي لنفسه بالمقام الأول في الأسرة، إذ هو لا يرضى بغير ذلك، مهما كان للمرأة من قوة وحسب. وبالنسبة لطبيعة البلاد، وحاجة القبائل إلى التنقل، ظهرت حاجتهم الشديدة إلى كثرة الرجال الأشداء على الأعداء في الحروب والغارات. كما ظهر خوفهم على البنات والنساء من شرور السبي، أو عدم وجود الأكفاء للزواج، أو الفقر، ولذلك ظهرت عادة وأد البنات.

أما فيما يتعلق بالحالة الاقتصادية، فقد أبت البيئة الطبيعية على العرب إلا

أن يكونوا حضراً يعيشون في المدن أو الواحات ، أو بدواً رحلا . وقد اعتمد الحضر على الزراعة القليلة . أما البدو ، فإنهم اعتمدوا في معايشهم على الرعي بقطعانهم من الماشية والأغنام ، يرتادون بها مواطن الكلأ والأعشاب ، حيثما وجدت ، فلم يكن لهم مستقر ثابت ، ولعل ذلك كان أكبر الأسباب في قيام الحلافات ، والالتجاء إلى القتال والغارات ، ومالا بسهما من حروب الثأر ، التي غصت بها أخبار بلاد العرب .

هذا وقد قامت بين العرب صناعات بسيطة ، استمدوا منها ما كانوا في أشد الحاجة إليه : كصناعة الحبال ، من ألياف النخيل . والسرج ، وبعض الأسلحة ، والحلى ، وتجفيف البلح ، وصيد اللؤلؤ .

ولما كانت الجزيرة العربية لا تكون وحدة اقتصادية كاملة ، بحيث تكفي نفسها بنفسها ، فقد اضطر أهلها ، من قديم الزمان ، إلى الاتصال بالخارج ، للمتاجرة ، ونقل التجارة ، عبر البحار ، وعبر بلادهم ، إلى الأقطار الأخرى ، التي تطلبها . وظلت التجارة مع الشام احتكاراً لليمن ، ولكن الحجازيين لم يلبثوا إلى أن تطلعوا إلى منافسة اليمنيين في هذا المورد ، ونافسوهم فعلا ، وحملوا سلع اليمن إلى الشام ، وسلع الشام إلى اليمن ، في رحلتي الشتاء والصيف . وانتهز الحجازيون موسم الحج ، والأشهر الحرم ، وأقاموا حول مكة أسواقاً ، يختلف إليها الناس من كافة أجزاء الجزيرة : في عكاظ ، وذي المجاز ، والمجنة . وكان الناس يأتون إلى هذه الأسواق ، حاملين معهم بضائعهم ، فيبيعون ويشترون ، ووصلت مهارة القرشيين ونشاطهم التجاري إلى حد بعيد جداً عن بلادهم ، فعقدوا المعاهدات التجارية مع الروم والفرس والأحباش .

أما عن الحالة السياسية في بلاد العرب ، قبل الإسلام ، فيبدو أن دولا عربية نشأت في اليمن ، وفي كنده ، وفي تدمر ، وفي الحيرة ، وفي الشام ، وأن رؤساء القوم في مكة أنشأوا نظاماً من الحكم شبيهاً بالجمهورية . فنظام الحكم ـ في كنده ، وفي اليمن ، وفي الحيرة ، وفي غسان ، وفي تدمر ـ كان ملكياً وراثياً في الغالب ، وسمي رئيس الدولة ملكاً ، هذا مع العلم بأن العرب لم يرتاحوا لهذا الأسم ، وكانوا يعدونه من ألقاب الأعاجم . وهذا صحيح في الواقع ، لأنه أطلق على ملوك الجنوب ، لقربهم من الحبشة ، وعلى ملوك أطراف الجزيرة ، لقربهم من الرومان والفرس . أما قلب الجزيرة والبادية ، فظلا بعيدين عن تقليد الأعاجم ، حتى في مثل هذه الأسماء . وكانت حكومة القبيلة هي النظام السائد فيهما ، والرياسة في هذه الحالة ليست وراثية دائما ، بل تقوم في الغالب على الاختيار ، بشروط معينة .

وكان لهذه الدول العربية ، في داخل الجزيرة ، وفي أطرافها ، شأن هام في عالم التجارة والعمارة والأدب والحرب ، ولا بد لذلك من نشر الأمن في منطقة نفوذها ، وحماية تجارتها في الطريق ، وهذا ماحملها على إعداد المقاتلين ، وهذا بدوره استدعى جباية الضرائب من التجار ، من أتباع الدولة ، أو أتباع غيرها ، ممن لا غنى لهم عن المرور بأرضها . وجمعت الضرائب أيضاً من الزراع : لعمل القنوات ، والسدود ، وإنشاء العمارة . أما في القبيلة فإن شيخها لم يجمع ضريبة ، يجوز أن نسمى بهذا الاسم . ولهذا ، فقد كان الغزو مورداً طبيعياً من موارد الرزق عندهم . فإذا استطاعت هذه القبيلة ، بقوتها ، أن تغتصب

قافـلة ، أو أن تستأثر بماء ، أو مرعى ، أو زرع ، فلا عيب في ذلك ، بحسب عرف ذلك الزمان . ومن الصفات ، التي كان يجب أن يتحلى بها شيخ القبيلة ،مزايا أجمع العرب على احترامها ، مثل : الشـجاعة ، والـكرم ، والحلم ، وكثرة عدد الأهل والأنصار ، وسـعة الجاه ، والثروة . وكان الأب يورث الرياسة لابنه أحياناً ، ولكن الغـالب أن ينتخب الشيـخ من بين الأفراد البارزين في القبيلة ، مع كبر السن ، والتجربة ، والعقل . ولشيخ القبيلة الحق في أعلان الغزو ، أو المصالحة ، أو الرحيل ، بعد استشارة ذوي الرأي والوجاهة في قبيلته . وله امتيازات أخرى ، منها : أخذ ربع الغنيمة ، قبل أن يأخذ أتباعه شيئاً منها ، ثم له أن يختار لنفسه من الغنيمة ماشاء ، وله أن يأخذ مايريد ، بعد القسمة .

يؤخذ من ذلك ، أن الدول نشـأت في بلاد خصبة ، مثل : اليمن ، وأطراف الجزيرة ، أو في مدينة خصبة ، واقعة على طرق التجـارة ، مثل : مشارف العراق والشام . وأن البادية كانت مهد الحكومة القبلية . والمحقق أن هذا لم يحدث اتفاقا ، بل لأسـباب طبيعية وجغرافية ، فالدول تحتاج إلى استقرار وثروة من : زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، وعلم . لهذا لما كانت الحجاز ونجد ، في أواسـط الجزيرة وشمالها ، معظمها بادية ، لم تظهر فيهما دول ؛ قبل الإسـلام ؛ سوى ما جاء بشأن حكومة مكة .

أما اليمن ، المشـهورة بخصبها وغناها وتجارتها ، فقد ظهرت فيها دول ذات مدنية . ويقال مثل ذلك عن أطراف الجزيرة في العراق والشام ، ففيهـما ظهرت دولة المناذرة ، دولة الغساسنة .

أما نواة الحكومة ، التي نشأت في مكة ، حول الكعبة، فيقال إن بني سهم ، قوم، عمرو بن العاص، كانوا أصحاب الحكومة في قريش. ومعنى « الحكومة » هنا التحكيم ، أي فض الخلافات بين القبائل على هذه الطريقة، ولكن لم تكن السلطة الفعلية لبني سهم ، قبل أن تؤول إلى قصي ، جد النبي (ص)، بل كانت في (خزاعة). و(قصي)، هو أول رئيس مشهور في قريش ، وعلى يده انتظمت مرافق الحياة العامة في مكة . فقام على دار الندوة، وهي أشبه شيء بمجلس شورى، يجتمع فيه الشيوخ، لبحث أمور القبائل . وكان من امتيازات (قصي) : عقد اللواء في الحرب، وسدانة الكعبة، ورفادة الحج، وسقايته. لكن رؤساء قريش لم يقبلوا هذه الزعامة المطلقة طويلا ، فقسموا المصالح والمنافع والوظائف بينهم ، خوفاً من أثر المنافسه . ولا يخفى ما كان بين هاشم ابن عبد مناف وبين أميه بن عبد شمس، من المنافسة الشديدة، التي امتد أثرها في تاريخ العرب إلى ما بعد الإسلام .

وقد امتازت قريش على سائر القبائل بهذه الرياسة ، التي تستمد سلطتها من مكانة الكعبة الدينيـــة ، وموقع مكة التجاري ، ومما كان لها من العدد والعدة في الحرب . وزاد في مكانة قريش بين القبائل ، ما يسميه المؤرخون « حلف الفضول » ، وهو عهد أخذته قريش على نفسها ، أن ترد كل مظلمة لأهلها ، لافرق في ذلك بين قرشي وغير قرشي . وقد فعلت قريش ذلك ، اعتماداً على ثروتها وقوتها . وزاد في أهميتها أيضا ما كان من زعامة عبد المطلب ، ورباطة جأشه ، أيام هجوم الأحباش ، وانهزامهم أمام الكعبة . وقد ظهر في مكة جماعة

من الرؤساء اشتهروا بالحرب والسياسة والتجارة ، وألفوا ما يشبه حكومة الجمهورية ، التي يسيطر عليها أفراد قلائل ، أو مجلس من الأعيان ، ذوي الثروة والجاه . ويشبه مجلس الأعيان ، في مكة المكرمة ، حكومة بسيطة : ففيه كانت تقرر السياسة العامة للمدينة ، بعد المداولة والشورى ، وكانت تفرض العقوبة على من خالف هذه السياسة . أما العقوبة الكبرى ، فكانت قطع العلاقة مع العشيرة ، وهو ما نسميه اليوم بالمقاطعة ، أو فرض العقوبات ، وهو أعظم عقاب يمكن أن يفرض على عربي ، في ذلك الوقت ، إذ لا يعدل رابطة القبيلة والنسب ، في نظرهم ، شيء ، وقطع العلاقة يعرض المرء للمهانة والعدوان .

ويبدو أن نظام الحكم في الإمارات ، أو في القبائل ، كان خاضعا للعرف البدوي الجاهلي ، ولا يسير بحسب قوانين موضوعة . ويمكن أن يقال ، على سبيل الإجمال ، أن الحكم عند العرب ، قبل الإسلام ، لم يختلف في روحه ، عند الملك ، ولا عند رئيس القبيلة في مكة ، اختلافا كبيرا : فالأساس هو سيادة شيخ ، أو ملك عرف بالصفات ، التي يحترمها البدوي ، وكلمته في أمته ، أو قبيلته ، مطاعة ، طالما تحلى بتلك الصفات ، وساس رعيته سياسة أب ، لا سياسة جبار .

أما حكومة مكة ، فكانت مزيجا من رياسة القبيلة وسلطان الملك ، وهي توافق ما كانت عليه مكة من رخاء في الحياة ، وازدهار في التجارة .

يتضح من هذا الوصف الموجز لحكم العرب وإدارتهم ، أيام

الجاهلية ، أن نظام القبيلة هو حجر الزاوية في كل نظام ، من الملكي المطلق ، كما كان عند بني لخم وغسان ، إلى الحكم الملكي القبلي ، كما كان في مكة ، إلى الحكم القبلي ، كما كان الغالب في سائر جهات بادية الجزيرة ، وأحياناً حضرها . فالصلة التي كانت تربط الناس بعضهم ببعض ، لم تكن عصبية ملك ، أو وطن ، أو دين ، حتى ولا تجارة ، أو منفعة عامة ، بل كانت صلة النسب والقرابة والدم ، فإذا اجتمعت قبائل في اتحاد واحد ، تحت حكم ملك ، أو مجلس من الأعيان ، فذلك اجتماع صوري فقط . فكل قبيلة من القبائل ، التي تألفت منها المملكة أو حكومة مجلس الأعيان ، احتفظت بصبغتها ومصالحها الخاصة . ولم يذكر التاريخ ملكاً ، أو شيخاً ، قهرها على ذلك ، أو جرب أن يقهرها ، أو يغير عليها ، قبل بعثة النبي (ص) ، الذي استطاع أن يستبدل بهذه الرابطة رابطة أقوى منها ، وهي رابطة الإسلام . وهو الذي استطاع أن يروض العرب على تغليب قرابة الدين على قرابة الدم ، وهذا النجاح الذي صادفه في هذه الناحية من رسالته ، لا يقل في أهميته ولا في أثره عن نجاحه في تحويل العرب من عبادة الأصنام إلى عبادة الله (جل وعلا). فرسالته لم تقتصر على نشر دين جديد فحسب ، بل اشتملت أيضاً على إنشاء نظام جديد ، ودولة جديدة .

أما عن الحالة الفكرية ، قبل الإسلام ، فأن العرب لم يكن لهم نصيب موفور من التعليم ، بمعناه الحديث ، والحقيقة ، أنهم لم يهتموا بمعرفة القراءة والكتابة ، وتعميمها ، وإن يكن منهم ، وبخاصة في اليمن ، من كان يكتب بالخط المسماري . وعلى الرغم من ذلك

فإنهم كسبوا، بالخبرة والمران ، الإلمام بعلوم عدة ، اضطرتهم إليها بيئتهم ، ومن ذلك : الفلك ، ومطالع النجوم ومغاربها ، وكذلك الكواكب . كما عرفوا كثيرا من الأنواء وأمطارها ، وكل هذه المعلومات ليست إلا مباحث من علم الفلك . وعرف العرب أيضا شيئا من الطب والتطبيب : وقد اقتصرت معرفة العرب بالطب ، في الجاهلية ، على مداواة ما كان ينزل بهم من أمراض وعلل . ولما كانوا أقل الناس ترفا ، فقد كانت حاجتهم إلى الطب والتطبيب قليلة .

وتفوق العرب في معرفة آثار الأقدام ، وساعدتهم على ذلك طبيعة بلادهم الرملية ، التي تنطبع عليها الأقدام بسهولة ، فلا يطمس معالمها إلا هبوب ريح شديدة ، أو سافي للرمال ، أو يد الإنسان .

وولع العرب بالمحافظة على أحسابهم وأنسابهم ، واشتهر في كل قبيلة نفر منهم يجيد تتبع احساب العرب وأنسابهم ، حتى يسهل على كل فرع من فروع القبيلة أن يلتمس المعونة ، أيا كانت، عند من تربطه به صلة الدم والنسب .

وأما عن الحالة الدينية ، في الجاهلية ، فقد عبد العرب مختلف النجوم والأشجار وغير ذلك ، ومثلوها بأحجار منحوتة ، أو غفل ، وبأخشاب ، وأحجار كريمة ، وأشياء أخرى ، وهذه هي ماتعرف بالأوثان والأصنام . وكذلك اتخذ العرب من البيت العتيق ، الذي أقامه ابراهيم واسماعيل، عليهما السلام ، بمكة ، مكاناً وسكناً لآلهتهم .

صنم والأوثان ، ولصورها ، وصور غيرهـا من البشر : كصورة
يد المسيح ، وأمه البتول ، واعترف العرب جميعاً بقداسـة الحرم
كة .وراعوا الأشهر الحرم:فلم يزاولوا فيها قتالا ، ولا اعتداء وحجوا
للبيت ، وساهموا في الأسواق ، التي عقدت حول مكة ، وفيها قالوا
ل ما عندهم ، في صراحة وحرية تامتين . وكذلك ظهرت المعلقات
ترت الألسن بنقد الأصنام وعبادتها دون تحرج .

وقد أصبح في الحرم ثلاثمائة وستون صنما ، وكان كبير الأصنام
مى هبل . ومن أشهرها اللات ، والعزى ، ومناة ، ويغوث ، ويعوق ،
سرا . وكذلك عبد العرب الملائكة والجن .

وانفرد القرشيون بالقيام على البيت ، والمحافظة عليـه ، وخدمـة
حجاج . وبذلك شاعت لغتهم ، وأصبحت لغة الشعر والأدب . وهكذا
سيف إلى أمجادهم القديمة مجدا الدين واللغة .

ولقد ازداد البيت قداسة ، عند العرب ، بعد موقعة الفيل ، التي
دأبرهة من ورائها صد العرب عنه بالقوة ، وتحويلهم من الوثنيـة
المسيحية .

وعرف للعرب أيضا عبادات التوحيد ، عن طريق الرسل ، الذين
هم الله إلى أقوام البلاد العربية المختلفة ، مثل : هود لقوم عاد ، وصالح
ود ، وإسماعيل لجرهم الأولى . وسرى دين ابراهيم واسماعيل إلى اليمن
بلاد الأخرى . وهذا هو أصل معرفتهم بالله ، وإقرارهم له بالألوهية ،
هم إنما يتخذون الأصنام والأوثان وسيلة ، تقربهم إلى الله زلفى .

ووفدت المسيحية إلى الجزيرة العربية من خارجها ، بسبب اتصال العرب بالروم ، ومناذرة الحيرة . وكذلك وفدت اليهودية من الشام وفلسطين والعراق . وكانت المجوسية ، أي عبادة النار ، من بين الأديان ، التي اعتنقها بعض العرب ، ولكن انتشارها كان محدوداً .

تلك صورة سريعة لأحوال البلاد العربية ، قبل عصر النبوة ، رسمناها لنتبين كيف أن الأسلام سلك طريقه قدما ، منذ انبثق ، متخطيا كل العوائق والعقبات ، دافعاً المسلمين إلى التقدم والسعادة والرخاء ، في شتى الميادين : الاجتماعية والاقتصادية ، والسياسية ، والفكرية ، والدينية .

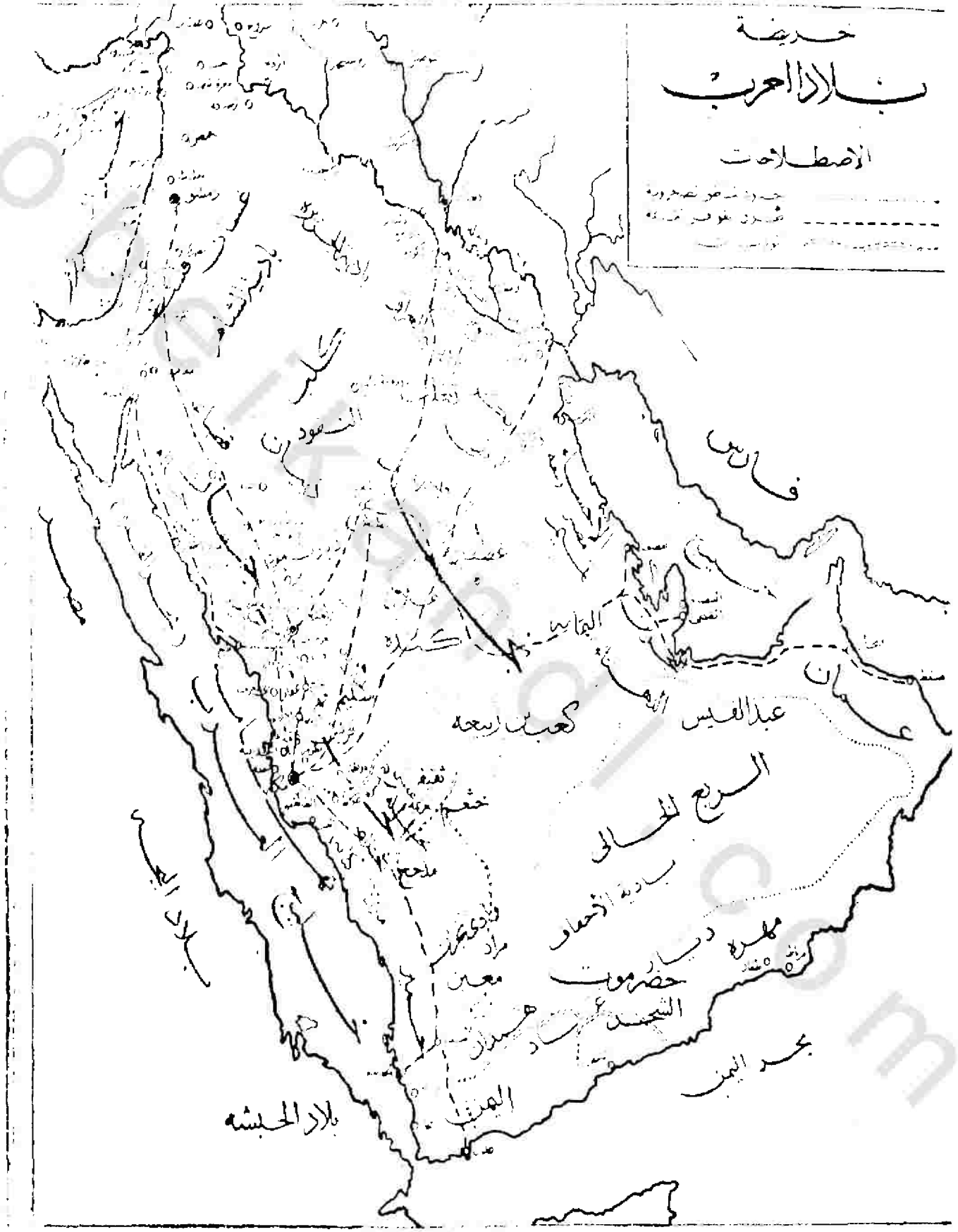
خريطة
بلاد العرب
الاصطلاحات
السودان
فارس
اليمامة
عبد القيس
عمان
بحر اليمن
بلاد الحبشه